

(٢)

## المناشاة، ومجركش الطيورج والتجاري

- الطفل الضربير .
- الغلام الموهوب .
- الشاب الطامح .
- ومضات كاشفة .
- موت الأب .
- إحدى الراحين .

## الطفل الضئير

« قضييَ عليّ وأنا ابن أربع ،  
لا أفرقُ بين البازلِ والرُّبع »  
أبو العلاء

( من رسالة إلى داعي الدعوة )

كان من حقّ مثله ، أن تنهياً له من ميراثه وبيته ظروف مسعفة  
على النبوغ ، وأن يبدأ منذ الفطام خطوته الأولى على الطريق التي سار  
عليها أبوه وأجداده كائبراً عن كائبر .

ولعل مخايل النجابة لاحت عليه في طفولته الباكرة فأرھفت فيه  
ميراث الطموح . لكنه ما لبث أن تلقى الصدمة الرهيبة من قبل أن  
تستقيم خطوته على درب الوجود :

اعتل في سنته الرابعة علة الجُدري ، فما أبّل منها إلا بعد أن شوّھت  
وجهه بندوب لا بُرء منها ، وذهبت ببصره مُسدِّلةً بينه وبين الدنيا

حجابا كثيفا حالك السواد ، فما انجاب عنه حتى آخر العمر .  
من ذلك الحادث الفاجع ، تبدأ قصة أبي العلاء مع الدنيا ....  
ومن مؤرخيه من قال إنه تلقى الصدمة في سنته الثالثة . ذكر ذلك  
« الصفدي » في ( نكت الهميان ) و « ابن حجر » في ( لسان الميزان ) .  
لكن أبا العلاء يصدقنا الخبر إذ يملي في إحدى رسائله إلى داعي  
الدعاة (1) :

« قضي عليّ وأنا ابن أربع ، لا أفرق بين البازل والرُّبع » .  
وليس بمستبعد أن يكون قد جُدِر في أبحريات سنته الثالثة ، ثم  
عمي في أوائل الرابعة .

\*\*\*\*

وكان كل ما بقي له من ذكريات عهده بنور العين ، لون الثوب  
الأحمر الذي ألبسوه إياه في علته . قال :  
« لا أعرف من الألوان إلا الأحمر ، لأنني ألبستُ في الجدري ثوبا  
مصبوغا بالعصفر ؛ لا أعقل غير ذلك ... » .  
وبقي لنا من ملامح صورته بعد المحنة ، ما نقله « ابن العديم »  
حكاية عن « ابن منقذ » أنه رأى أبا العلاء وهو صبي دون البلوغ ،  
ووصفه فقال :

« وهو صبي دميم الخِلقة مجذور الوجه ، على عينيه بياض من أثر  
الجدري ، كأنه ينظر بإحدى عينيه قليلا » .

---

(1) مع ( رسائل أبي العلاء ) تحقيق مرجليوث .

كما نقل من قول « عبد الله بن الوليد المعري » وقد رأى أبا العلاء  
شيخاً :

« وكأني أنظر إليه الساعة وإلى عينيه : إحداهما نادرة - نادرة -  
والأخرى غائرة جدا . وهو مُجدَّر الوجه نحيف الجسم » (١) .

تكفي هذه المرويات لتمثله في صباه الباكر حين بدأ يخطو على  
درب الحياة وبينه وبين الدنيا ذلك الحجاب الأصم من ظلام دامس لا  
أمل في انحساره ...

\*\*\*\*

في ذلك الحين ، لم يكن الصبي قد نضج وعيه أو اتسعت مداركه  
بحيث يقدر فداحة المحنة وهول المأساة . وقد درَّبه أهله في طفولته على  
مواجهة عالم الظلام ، وراضوه عليه حتى خيلَ إليهم وإليه أنه أَلْفَه  
واعتاده ....

غير أنه لن يلبث أن يدرك مع نضج السن والوعي ، أن مأساة  
حياته كلها بدأت بتلك الآفة التي قضت عليه وهو ابن أربع ، كما  
قال في إحدى رسائل شيخوخته العالية . وسوف نسمعه في الشطر الثاني  
من حياته ، يطيل الحديث عن محنة العمى ، وعن الظلام الدامس  
الذي لا ينجاب ، والليل الطويل الذي لا ينجلي . ويعدُّ من مزايا ضجعة  
القبر أن تأمن العين المنطقشة في الثرى ، من مصلب عمى أو آفة رمَد .  
وسياتي دارسون من بعده ، فيتوهمون أنه ربيض على محنته ورضي بقدره .

---

(١) الإنصاف والتحري : ٥١٤/تعريف .

ويأتي صوته الفاجع من وراء القرون :

إذا طُفئت في الثرى أعينُ

فقد أمنت من عمى أو رمذ

••••



## الغلام الموهوب

« ما سمعت شيئا إلا حفظته ،

وما حفظت شيئا ونسيته »

أبو العلاء

( في إحدى رسائله )

تعثرت خطوته الأولى على الطريق ، فقاده أبوه إلى عالمٍ يمنحه نور البصيرة ويكشف له عن آفاق الوجود المغلق أمام عينيه المنطفئتين :  
قرأ القرآن على جماعة من الشيوخ « ممن يُسار إليهم في القراءات » .  
وسمع الحديث من أبيه عبد الله ، وجدّه سليمان ، وجدته « أم سلمة بنت الحسن بن إسحاق بن بلبل المعري » وأخيه الأكبر أبي المجد محمد . وسمعه كذلك عن : أبي زكريا يحيى بن مسعر المعري ، وأبي الفرج عبد الصمد الضرير الحمصي ، والقاضي أبي عمرو عثمان الطرسوسي ، وغيرهم من محدثي المعرفة وحلب في زمانه .

وتلقى علوم اللغة والنحو بمعزة النعمان ، على أبيه ، وعلي أبي بكر بن مسعود النحوي ، وجماعة من أصحاب « ابن خالويه » إمام العربية في الشام .

وظهر من ذكائه ونجابته ، ما جعل أباه يمضي به إلى « حلب » عاصمة الإقليم - وفيها أخواله بنو سبيكة - حيث تلقى النحو على « محمد ابن عبد الله بن سعد النحوي »<sup>(١)</sup> .

وكان الظن الغالب علينا معشر الدارسين ، أن أبا العلاء بدأ من ذلك العهد ، اتصاله بالأدب ومعرفته بشعر المتنبي ، إذ كان شيخه « ابن سعد » راوية أبي الطيب .

لكن خيراً نقله « ابن العديم » يجعلنا نتردد فيما غلب علينا من ظن : خلاصة الخبر أن « ابن سعد » كان يروي بمسمع من أبي العلاء - وقد اجتمع به في حلب ، وهو صغير - قصيدة المتنبي الدالية :

أزائرُ ، يا خيالُ ، أم عائِدُ أم عند مولاكَ أني راقِدُ

ولم تكن القصيدة مما قرأه ابن سعد على الشاعر أبي الطيب المتنبي ، بل كانت مما أنفذه إليه . فلما وصل ابن سعد في قراءته إلى البيت :

أو مَوْضِعاً في فناءِ ناحيةٍ تحمِل في التاجِ هامةَ العاقِدِ

ردّه عليه أبو العلاء الصبي ، وقال مصححاً :

• أو مَوْضِعاً في فتانِ ناجيةٍ •<sup>(٢)</sup>

(١) ابن العديم : الإنصاف ، ٥١٤ .

(٢) أوضع في السير فهو موضع : أسرع . والفتان : غشاء من آدم يوضع فوق الرجل . والناجية : الناقة المريفة .

فلم يقبل ذلك « ابن سعد » ومضى إلى نسخة عراقية من « ديوان  
المتنبي » فوجد القول ما قاله أبو العلاء (١) .

فهل كان الصبي قد اتصل بشعر المتنبي قبل مجيئه إلى حلب واتصاله  
بابن سعد رواية الشاعر ؟

أو كان ما قاله في الشطر الأول من البيت ، لمحة وجدانٍ ذكي تذكرنا  
بمثلها من شاعرنا الجاهلي الشاب « طرفة بن العبد » حين سمع وهو صبي  
يلعب مع الغلمان ، بيت « المتلمس » :

وقد أتنامي الهمم عند احتضاره

بِنَاجٍ عَلَيْهِ الصَّيْعِرِيَّةُ مَكْدَمُ

فصاح الصبي « طرفة » : « استنوق الجمل » لأن الصيغرية سمة  
في عنق الناقة ، لا البعير .

وسواء أكان أبو العلاء قد أنكر رواية شيخه « ابن سعد » لبيت  
المتنبي ، عن ذوقٍ شعري مرهف ؛ أو كان قد سمعه على الرواية الصحيحة  
فيما سمع من أمالٍ لغوية وهو يقرأ اللغاة والنحو بمعة النعمان ، على  
جماعة من أصحاب « ابن خالويه » ،

فالخبر على أي الحالين ، يؤرخ لنا اتصال أبي العلاء في تلك الفترة  
من صباه الغرض المتفتح لاستقبال المؤثرات الذوقية ، براوية المتنبي  
« ابن سعد » ، ولم يكن هذا الاتصال سريعاً عابراً ، بل كان تلمذة علمية  
وأدبية ، لعلنا نلتبس منها ما قد يفسر لنا الذي طالما حيرنا من إعجاب

(١) الإنصاف والتحري : ٥١٥ / من تعريف القدماء .

أبي العلاء بالمتنبي ، على ما بين الرجلين من بَوْنٍ شاسع : في الخلقية والطبع ، وفي الشخصية والمنهج ، وفي الموقف والسلوك....

\*\*\*\*

واستأنف الغلام سيره يطلب العلم . وفي خبرٍ أنه رحل إلى « طرابلس الشام » وكان بها خزائن كتب موقوفة ، وأنه في رحلته « مر باللاذقية ونزل ديراً كان به راهب له عِلْمٌ بأقوال الفلاسفة ، سمع أبو العلاء بعضَ كلامه فحصل له به شكوك » يرد إليها بعضُ متهميه ما رابهم من أمر عقيدته .

وتتناقض الأخبار المروية عن تلك الرحلة :

فابن كثير لا يشير إلى مكانها ، ولا يذكرها بصيغة توثيق ، بل يكفي بما نصه :

« ويقال إنه اجتمع براهب في بعض الصوامع ، في مجيئه من بعض السواحل ، آواه الليل عنده فشككه في دين الإسلام » (١) .

وابن العديم - وهو عندنا أولى بالثقة - ينفي الرحلة إلى طرابلس جملة ، ويردها إلى اشتباه برحلة أبي العلاء إلى دار العلم ببغداد ، ويستند في نفيها إلى دليل تاريخي لا مطعن فيه : أن لم تكن في طرابلس الشام دارُ علمٍ على أيام أبي العلاء :

ونص عبارته :

« وقد ذكر بعض المصنفين أن أبا العلاء رحل إلى دار العلم بطرابلس

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية : حوادث سنة ٤٤٩ هـ - وفيها وفاة أبي العلاء .

للنظر في كتبها . واشتبه عليه ذلك بدار العلم ببغداد . ولم يكن بطرابلس دارُ علمٍ في أيام أبي العلاء . وإنما جَدَّدَ دارَ العلم بها « القاضي جلالُ الملك أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن عمار » في سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة - بعد ما يقرب من ربع قرن على وفاة أبي العلاء - ووقف ابن عمار بها من تصانيف أبي العلاء : الصاهل والشاحج ، والسجع السلطاني ، والفصول والغايات ، والسادن ، وإقليد الغايات ، ورسالة الإغريض « (١) .

وكانت كلمة « ابن العديم » بحيث تفصل في أمر هذه الرحلة المشكوك فيها ، لولا أن بعض متأخري المصنفين ، ممن سيطرت عليهم فكرة اتهام عقيدة أبي العلاء ، أراحهم أن يأخذوا من رحلة طرابلس والمبيت في صومعة الراهب ، مفتاح السر لما وهموه من شك أبي العلاء . وضاعت كلمة « ابن العديم » الكاشفة عن موضع اللبس والاختلاط في خبر الرحلة ، الشاهدة على نفيها بأن طرابلس لم يكن فيها دارُ علم على أيام أبي العلاء ، ولثلاث وعشرين سنة بعد وفاته ! ونُسِي معها أن « ابن كثير » ساق الخبر بكلمة « ويقال » النافية عنده للتثبت والتحقق .

ثم جاء من بعد أولئك الذين تعلقوا بخبر الرحلة في قضية اتهام عقيدة أبي العلاء ، نفر من المحدثين أعجبتهم حكاية الراهب والصومعة ، فلم يقفوا بها عند اتهام العقيدة فحسب ، بل أضافوا إليه - من جديد

---

(١) الإنصاف والتحري : ٥٥٧ / تعريف .

ما اكتشفوه - بدعة « يونانية أبي العلاء » لمجرد أن راهبا مجهولا قيل إنه آواه الليل في صومعته ، وما دام قد شككه في الإسلام ، فلا بد أن يكون كذلك قد وصله بالفكر اليوناني وفتح له كنوزه التي صاغت عبقريته !!

ومن ثم راحوا يلتقطون بضعة ألفاظ وأفكار ، ويوجهونها إلى اليونانية توجيهها بالغ الشطط والاعتساف ، يراه فقهاء النصوص من دارسي أبي العلاء ، عجبا من العجب !

وما هان منطق العقيدة ، ليكون اجتماعُ براهب في رحلة عابرة خالطها الوهم واللبسُ ، يهز عقيدة شاب نشأ في بيتٍ معرق في العلم والدين ، ورسخت جذوره في أعماق تربة إسلامية . وفي ديار الإسلام كثير من الصوامع والأديرة ما نعلم أن رهبانها فتنوا عن الإسلام من هو دون أبي العلاء رسوخا فيه وعلما به .

وأخشى ما أخشاه أن يكون وراء إصرار بعض المُحدثين على تأثر عقيدة أبي العلاء براهب الصومعة ، ما يُلقتون إليه بلباقة ، من مرور « محمد بن عبد الله » - عليه الصلاة والسلام - بأحد الأديرة في رحلة صباه إلى الشام مع عمه « أبي طالب » ولقائه في الدير بالراهب « بحيرا » قبل المبعث .....

ولا هانت قضية الفكر ، كذلك ، بحيث يكفي أن يمر أحدنا في رحلة له براهبٍ يؤويه ، فيصله بالفكر اليوناني أو غير اليوناني . وقد نعلم أن من يقول بـيونانية أبي العلاء ، يرفض بإصرار عجيب أن

يعترف لأي مفكرٍ إسلاميٍ معاصرٍ لم يدرس في مدرسةٍ أجنبيةٍ ، بالاتصال  
بالفكر الغربي ، وإن أقام في أوروبا سنين عدداً ، وأتقن من لغاتها  
ما يصله بآثار الصفاة من مفكريها !

وفي هذا أيضاً ، أخشى أن يكون القائلون بيونانية أبي العلاء ،  
مأخوذين من حيث يدرون أو لا يدرون ، بفتنة اليونانية والغربية  
بوجه عام ، فليسوا بقادرين على أن يتصوروا أن تظهر عبقرية مفكرٍ  
إسلاميٍ أو أديبٍ عربيٍ ، دون أن تمت بسبب أو بآخر إلى أصولٍ أجنبيةٍ :  
يونانية أو رومية .

من ثم راحوا ينبشون في مجاهل الماضي عن ميراث وهمي أو نسب  
بعيد في الروم واليونان والعجم ، لشعراء ومفكرين لا يعرف التاريخ  
لهم منبتاً في غير بيئتهم العربية الإسلامية .

وفي أخذة الفتنة ، غاب عنهم ما لا يغيب عن أي مثقفٍ واعٍ من  
شهادة التاريخ الثابتة : أقوال الفلاسفة لم تكن حِكْراً على رهبان الأديرة ،  
فلا سبيل لأبي العلاء إليها إلا أن « يجتمع في مجيئه من بعض السواحل  
براهب في صومعته » .

قبل مولد أبي العلاء بقرنين وأكثر ، كان الفكر اليوناني قد تم  
تعريبه . وكانت أقوال الفلاسفة قد تم نقلها وهَضَمَ منها الفكرُ  
الإسلامي ما صاغه بمنطقه .

وعن طريق المترجمين العرب ، لا عن طريق رهبان الصوامع والأديرة ،  
عرفت أوروبا في العصر الوسيط تراث «الفكر اليوناني» ، ونقلت أقوال  
فلاسفته الأعلام !

وما أبو العلاء ، وسائر مفكري الإسلام وأدباء العربية ، سوى عطاء  
بيئتهم الإسلامية بكل أصالتها وخصبها ، وما تلتقت من روافد التراث  
الفكري القديم ، اليوناني وغير اليوناني ، وهضمته بعقليتها المتميزة ،  
وتمثلته بمنطق تفكيرها وروح عقيدتها ...

\*\*\*\*

ونستأنف السير مع أبي العلاء في صباه :  
في خيرٍ آخر ، أنه رحل إلى « أنطاكية » وتردد إلى خزانة كتبها  
يحفظ ما فيها . قاله « ابن منقذ » فيما نقل « ابن العديم » :  
« كان بأنطاكية خزانة كتب وكان الخازن بها رجلاً علويّاً .  
فجلست يوماً إليه فقال : « قد خبأتُ لكَ غريبةَ ظريفةٍ لم يُسمعَ بمثلها ...  
صبي دون البلوغ ضريير يتردد إليّ ، وقد حَفَظْتُه في أيام قلائل عدةً  
كتبٍ ، وذلك لأنني أقرأ عليه الكراسية والكراسيتين مرة واحدة ، فلا  
يستعيد إلا ما يشك فيه ؛ ثم يتلو عليّ ما قد سمعه كأنه من محفوظة » .  
قلت : « فلعله يكون يحفظ ذلك ؟ » .

قال : « سبحان الله ! كلُّ كتابٍ في الدنيا يكون محفوظاً له ؟ وإن  
كان ذلك كذلك ، فهو أعظم » ثم حضر المشارُ إليه ، وهو صبي دميم  
الخلقة مجدور الوجه على عينيه بياض من أثر الجدري ، كأنه ينظر  
بإحدى عينيه قليلاً ، وهو يتوقد ذكاءً ، يقوده رجلٌ طوال من الرجال  
أحسبه يقرب من نسبه ... فاخترت شيئاً وقرأته على الصبي وهو يموج  
ويستزيد ، فإذا مرَّ به شيء يحتاج إلى تقريره في خاطره يقول : « أعدْ

هذا « فأرده عليه مرة واحدة . حتى انتهيت إلى ما يزيد على كرامة ، فتلا عليّ ما أملتته عليه ، وأنا أعارضه بالكتاب حرفاً حرفاً حتى انتهى إلى حيث وقفتُ . فكاد عقلي يذهب لما رأيت منه . وسألت عنه فقبل لي : هذا أبو العلاء التنوخي ، من بيت العلم والقضاء والثروة والغناء »<sup>(١)</sup> .

وفي هذه الحكاية أيضاً ، وهمٌ لفت إليه « ابنُ العديم » : ذلك أن أنطاكية كانت بأيدي الروم من سنة ٣٥٨ قبل مولد أبي العلاء بخمس سنين ، إلى أن فتحها « سليمان بن قطامش » سنة ٤٧٧ هـ ، بعد وفاة أبي العلاء بثمانٍ وعشرين سنة<sup>(٢)</sup> .

لكنها مع هذا الوهم ، لا تفقد دلالتها على ما شاع وذاع من ذكاء الصبي الضرير وعجيب حفظه ، كما لم تفقد رحلة طرابلس والمبيت بصومعة الراهب ، بالوهم والتوهين ، دلالتها على ما نشب في فكر بعض المصنفين من اتهامٍ لعقيدة أبي العلاء .

كان أبو العلاء في صباه ، أعجوبة زمانٍ « لم يُسمع بمثلها قط » و « ابن العديم » الذي وهن خبر خزانة أنطاكية ، قد عقد في كتابه ( الإنصاف والتحري ، في دفع الظلم والتجري ، عن أبي العلاء المعري ) فصلاً خصباً « في ذكر ذكاء أبي العلاء وفطنته ، وسرعة حفظه وألمعيته ، وتوقد خاطره وبصيرته » أورد فيه عجائب وغرائب ، إن اتهمناها بالوضع كانت أعمق دلالة على رأي معاصريه فيه ، وانبهارهم بما ظهر

---

(١ ، ٢) الإنصاف والتحري : ٥٥٤ / تعريف .

من نجابته وفطنته وقوة حافظته ، مذ كان صبيا دون البلوغ .

•••••

وتتظاهر الأخبار والمرويات على صدق هذه الدلالة ، كمثل الحكاية التي ذكرها بعض مؤرخيه ، وخلاصتها أن أهل حلب سمعوا بذكائه وهو صغير ، فسافر جماعة من أكابرهم إلى معرفة النعمان لينظروه ويمتحنوه . قال لهم : هل لكم في المقافاة بالشعر ؟

فجعل كل واحد منهم ينشد بيتا ، فينشد أبو العلاء الصبي من حفظه بيتا على قافيته . حتى نفذ حفظهم فقال :

– أعجزتم أن يعمل الواحد منكم بيتا عند الحاجة إليه ، على القافية التي يريد ؟

قالوا : فافعل أنت ذلك .

فجعل كلما أنشده واحد منهم بيتا ، أجابه من نظمه على قافية البيت « حتى قطعهم جميعا » (١) .

---

(١) ابن العديم : الإنصاف والتحري ، ٤٥٨ / تعريف .

## الشابُّ الطامح

لِي الشرفُ الذي يَطأُ الشريفا  
مع الفضل الذي بهر العبادا  
أقل نوائب الأيام وحدي  
إذا جمعتُ كتابها احتشادا  
أبو العلاء  
( سقط الزند )

من ذلك العهد المبكر ، في الصبا الغضُّ ، اهتدى أبو العلاء إلى ما حسبَه سلاحَه في معركة الوجود ، وعرف طريقَه على الدرب . وقد أرضاه أن يجد في موهبته الفذة عَوْضاً عما فَقَدَ ، وأن يلتمس من العلم النور الذي حجبَه عنه العمى مذ كان في المهد صبيا .

وفي اعتدادٍ وعنادٍ ، صمَّ على أن يتحدى محنته وأن يشق سبيله إلى حيث يريد ، لا يعوقه فقدُ البصر .

وبلغ المدى في مكابرتة ، فرُئي في شبابه الباكر يلعب النردَ والشطرنج ،  
ويأخذ في فنون اللهو والجد كما يفعل لِدائهُ المبصرون . ومن أقدم ما  
وصل إلينا من أخباره ، ما رواه معاصره « أبو منصور الثعالبي » قال :  
« وكان حدثني أبو الحسن المصيصي الشاعر ، وهو ممن لقيته قديما  
وحديثا في مدة ثلاثين سنة ، قال : لقيت بمعة النعمان عجبا من العجب :  
رأيت أعمى شاعرا ظريفا يلعب الشطرنج والنرد ، ويدخل في كل فن  
من الجد والهزل ، يكنى أبا العلاء . وسمعتة يقول : أنا أحمد الله على  
العمى كما يحمده غيري على البصر ، فقد صنع لي وأحسنَ بي إذ كفاني  
رؤية الثقلاء البُغضاء » (١)

ونقلوا ، في مثل هذه الكلمة لأبي العلاء ، أنه قال :

قالوا : العمى منظر قبيح قلت : بفقدانكم يهونُ

والله ما في الوجود شيء تأسى على فقده العيون .

والبيتان مما لم يُروا في ديوانيه : ( سقط الزند ، ولزوم ما لا يلزم ) (٢).

وفي النفسِ شيءٌ من نسبتها إلى أبي العلاء ، فما كان مثله ليعتد في  
محنة العمى بقبح منظر ، ولا كان بحيث لا يأسى على حرمانه من  
رؤية أمه الغالية وسائر أهله الأحباب .

فهل نظمها غيره متأثرا بالمروي عن أبي العلاء ، في حديث المصيصي

الشاعر إلى أبي منصور الثعالبي ؟

مجرد احتمال لا أملك أن أعطيه صفة الرجحان ، فضلا عن أن

(١) الثعالبي : تنمة البتيمة ، ٩/١ ط طهران ١٣٥٣ هـ .

(٢) نقلها أبو العباس المكي في ( نزهة المجلس ) - أنظر ( التعريف ) .

أقطع فيه بيقين ...

ولدينا على أي حال ، من شعر شبابه في ( سقط الزند ) شاهد صادق  
على ما كان من بُعد هِمَّتِه وطموحه ، وعجيب مكابرتِه وعنيد إصراره  
على اقتحام معركة الوجود ...

وأشير هنا إلى قصيدته اللامية المشهورة :

ألا في سبيلِ المجد ما أنا فاعل  
عفاف وإقدام وحزم ونائلُ

وفيهما يقول مفاخرًا متحديًا :

وقد سار ذكري في البلاد فمن لهم  
بإطفاءِ شمسِ ضوؤها متكاملُ  
يهمُّ الليالي بعضُ ما أنا مضمرُ  
ويُثقلُ رضوى دون ما أنا حاملُ  
وإني وإن كنت الأخيرَ زمانه  
لآتٍ بما لم تستطعه الأوائلُ  
وأغدو ولو أن الصباح صوارمُ  
وأسري ولو أن الظلام جحافلُ  
وإن كان في لبسِ القتي شرف له  
فما السيف إلا غمدُه والحمانلُ  
ولي منطق لم يرض لي كُنَّه منزلي  
على أنفي بين السماكين نازلُ

لدى موطنٍ يشتاقه كلَّ مبيدٍ  
ويقصر عن إدراكه المتناولُ  
ينافسُ يومي في أَمسي تشرُفاً  
وتحسد أسحاري عليَّ الأصائلُ

هكذا يبدو أبو العلاء الفتى ، وكأنَّ الدنيا لا تتسع له ، لفرط طموحه واعتداده بمواهبه . وهو يلقانا في تلك المرحلة من شبابه مشغولاً بخصوم له لا نعرفهم ، وأغلب الظن أن يكون من بين شباب حلب الطامحين ، من أبناء جيله ، مَنْ ضاقوا بما استأثر به هذا الضرب من نباهة وشهرة ، فحاولوا الغضَّ من قدره ليفسح أمامهم فرصة الظهور . وأبو العلاء يتحداهم بمثل ما نقلنا آنفاً من أبياته اللامية ، ومثل قوله في (السقط) :

تعاطوا مكاني وقد فُتُّهم  
فما أدركوا غيرَ لمحِ البصر  
وقد نبحتني وما هجتهم  
كما نبح الكلبُ ضوء القمر

.....

أفوقَ البدرِ يوضع لي مهادُ  
أم الجوزاء تحت يدي وسادُ  
قنعتُ فخلتُ أن النجم دوني  
وسيان التفتُّعُ والجهادُ

رويدك أيها العاوي ورائي  
لتخبرني متى نطق الجمادُ  
أأحملُ والنباهةُ في لفظ  
وأقتر والقناعة لي عتادُ

\*\*\*\*

وكم من طالبٍ أمدي سيلقى  
دوينَ مكاني السبعَ الشدادا  
يؤجج في شعاع الشمس نارا  
ويقدح في تلهبها زنادا  
ويظهر لي مودته مقالا  
ويبغضني ضميرا واعتقادا  
فلا وأبيك ما أخشى انتقاصا  
ولا وأبيك ما أرجو ازديادا  
لي الشرف الذي يطأ الثريا  
مع الفضل الذي بهر العبادا  
ولو ملأ السهى عينيه مني  
أبرَّ على مدى زحلٍ وزادا  
أفلُّ نوائب الأيام وحدي  
إذا جمعتُ كتابها احتشادا  
ولي نفسٌ تحل بي الروابي  
وتأبى أن تحلَّ بي الوهادا

تمد لتقبضَ القمرين كَفًّا  
وتحمل كي تبذ النجم زادا

••••

ورائي أمامُ والأمامُ وراءُ  
إذا أنا لم تُكبرني الكُبراءُ  
بأيِّ لسانٍ ذماني متحاملُ  
عليّ ، وخفقُ الريحُ في ثناء  
تكلم بالقول المضلل حاسد  
وكلُّ كلام الحاسدين هراءُ  
أتمشي القوافي تحت غير لوائنا  
ونحن على قوالها أمراءُ  
وما سلبتنا العزَّ قط قبيلةُ  
ولا بات منا فيهمُ أسراءُ  
ولا سار في عرض السماوة بارق  
وليس له من قومنا خفراءُ

••••

على أنه في عتفوان ذلك التحدي الطامح ، لم يغفل عما حوله من  
ضلال المقاييس واختلال الموازين . مسجلاً من ذلك العهد المبكر ، إدراكه  
لفساد العصر ووعيه لهزل الدهر . فذلك حيث يقول في اللامية :  
ولما رأيتُ الجهلُ في الناس فاشياً  
تجاهلت حتى ظنَّ أني جاهلُ

فواعجبا كم يدعي الفضل ناقص  
ووا أسفا كم يظهر النقص فاضل  
إذا وصف الطائي بالبخل مادر  
وعير قسأ بالفهامة باقل  
وقال السهي للشمس أنت خفية  
وقاخرت الشهب الحصى والجنادل  
فيا موت زر إن الحياة رخيصة  
ويا نفس جدي إن دهرك هازل

\*\*\*\*

وبدا أن القدر أملى له حيناً ، فمضى في شببته ملء الزهو والطموح .  
وواتته شاعريته فلم يدع غرضاً من أغراض الشعر المعروفة إلى عصره  
إلا نظم فيه على مذهب الفحول السابقين :  
مدح لغير تكسب ، وهل كان بحيث يطبق الاستجداء ولو مات  
من جوع ؟  
وهناً بالعرس والولد ، وهو الذي مضى على تصميمه ألا يتزوج ،  
ولا يجني على ولد ...  
ورثى وهجا ، وتغزل واقتخر ،  
على تفاوت في مدى العناية بكل ذلك .  
واتصل بالحياة العامة مبكراً ، فشغل بالمعارك الدائرة بين العرب  
المسلمين والروم ، وجاهد فيها بقصائد حماسية مطولة ، وعزف للأبطال  
أناشيد النصر :

مُكَلَّفٌ خَيْلَهُ قَنْصَ الْأَعَادِي  
وجاعل غايه الْأَسْلَ الطوالا  
تَكَادُ قَيْبُهُ مِنْ غَيْرِ رَامٍ  
تُمْكِّنُ فِي قُلُوبِهِمُ النَّبَالَ  
تَكَادُ سَيْوفُهُ مِنْ غَيْرِ سَلٍّ  
تَجِدُّ إِلَى رِقَابِهِمْ انْسِلَالًا  
إِذَا سَقَتِ السَّمَاءُ الْأَرْضَ سُخْبًا  
سَقَاها مِنْ صَوَارِمِهِ سَجَالًا  
ويضحى والحديدُ عليه شاكٍ  
وتكفيه مهابتُهُ النَّزَالًا  
ولولا ما بِسَيْفِكَ مِنْ نَحْوٍ  
لَقَلْنَا أَظْهَرَ الْكَمَدِ انْتِحَالًا  
يَذِيبُ الرَّعْبُ مِنْهُ كَسْلَ عَضْبٍ  
فَلَوْلَا الْغَمْدُ بِمَسْكِهِ لَسَالَا  
حَفِظَتْ الْمُسْلِمِينَ وَقَدْ تَوَالَتْ  
سَحَابٌ تَحْمِلُ النَّوْبَ الثَّقَالَا  
بِوَقْتٍ لَا يَطِيقُ اللَّيْثُ فِيهِ  
مَسَاوِرَةً ، وَلَا السَّيْدُ اخْتِحَالَا

•••••

أَيُوعِدُنَا بِالرُّومِ نَاسٌ وَإِنَّمَا  
هُمُ النَّبْتُ ، وَالْبَيْضُ الرَّقَاقُ سَوَامٌ

كَأَنَّ لَمْ يَكُن بَيْنَ الْمَخَاضِ وَحَارِمٍ  
كَتَابُ يُشْجِنُ الْفَلَاحِ وَخِيَامُ  
وَلَمْ يَجْلِبُوهَا مِنْ وَرَاءِ مَلْطِيَّةِ  
تَصَدَّعُ أَجْبَالُ بِهَا وَإِكَامُ  
بِیَوْمٍ كَأَنَّ الشَّمْسَ فِيهِ خَرِيدَةٌ  
عَلَيْهَا مِنَ النَّعَقِ الْأَجَمِّ لِثَامُ  
كَأَنَّهُمْ سَكَّرَى أُرِيقَ عَلَيْهِمْ  
بَقَايَا كَثُوسٍ مَلُؤْهِنَ مَدَامُ  
فَأَضْحَوْا حَدِيثَنَا كَالْمَنَامِ ، وَمَا انْقَضَى  
فَسِيَّانٍ فِيهِ يَقْظَةٌ وَمَنَامُ

.....

فَلَا قَوْلَ إِلَّا الضَّرْبَ وَالطَّعْنَ عِنْدَنَا  
وَلَا رُسُلَ إِلَّا ذَابِلَ وَحَسَامُ  
فَإِنْ عُدَّتْ فَالْمَجْرُوحُ تَوَسَّى جِرَاحَهُ  
وَإِنْ لَمْ تَعُدْ مَتْنَا وَنَحْنُ كِرَامُ  
فَلَسْنَا وَإِنْ كَانَ الْبِقَاءُ مُحِبِّبًا  
بِأَوْلٍ مِنْ أَخْنَى عَلَيْهِ جِمَامُ

.....

فَلَمَّا تَجَلَّى الْأَمْرَ قَالُوا تَمْنِيًّا  
أَلَا لَيْتَ أَنَا فِي التَّرَابِ رِمَامُ

وراموا التي كانت لهم وإليهم  
وقد صعبتُ حالٌ وعَزَّ مرأى  
وظنوك ممن يطفىء البردُ ناره  
إذا طلعت عند الغروب جهامُ  
وأنتك تثنيتها قبالةً جَلَّتِ  
متى لاح برق واستقله غمامُ  
وقالوا شهورٌ ينقضين بغزوة  
وما علموا أن القفولَ حرامُ

\*\*\*\*

وأراني انصرفت عمدا عن ملابسات هذه القصائد ، فلم أتعلق  
بتحديد الوقائع وتعيين أبطالها ، إذ ليس ما يشغلني هنا إلا الشاعر الشاب  
الذي أخذ في فنون الجد ، وخاض مع قومه معارك الصراع بين الإسلام  
والصليبية ، مجاهدا بكلمته حين عز عليه أن يجاهد بنفسه .

ولعلي في حرصي هنا على ألا أشغل عن الشاعر ، منفعة بموقف مصنفي  
المنتخبات الشعرية ودارسي تراثنا الأدبي ، من هذه الحماسيات العلائية  
وأمثالها من آثاره : طُوِّيت عن أجيالٍ منا فما لفتنا إليها لافت ، إلا  
أن يمر بنا بيت منها في شواهد النحاة . أعني بيته في سيف الفارس  
البطل :

يذيب الرعبُ منه كلَّ غضب

فلولا الغمدُ يسكه لَسَّالا

\*\*\*\*

وكانَ ليس في رواه الشعرية وصوره الفنية ، ما يصلح مادةً للدراسة نقدية ، إن لم تساعد على تصحيح فهمنا لتراثنا الأدبي ، فليس يخطئها أن تصحح فهمنا لشخصية أديب العربية وعالمه النفسي ...

\*\*\*\*

ومن شعر شبابه ، وصل إلينا مع حماسياته وقصائده جده ، ما يشهد بأنه كان يسرف كذلك على نفسه في أخذها بالتفتح للدنيا والإقبال على الحياة ، ويفرض عليها أن تعاني فنون اللهو والطرب ، إلى جانب ما تعلقت به من فنون الجد ، وما شغلها واستهواها من طلب العلم والمجد . في ( سقط الزند ) ديوانه الأول ، نسمعه يشدو بذكريات ليلة لهو تعطينا رؤياه الشعرية :

رُبَّ لَيْلٍ كَأَنَّهُ الصَّبْحُ فِي الْحَسَنِ وَإِنْ كَانَ أَسْوَدَ الطَّيْلِسانِ  
قَدْ رَكُضْنَا فِيهِ إِلَى اللّهُوَ حَتَّى وَقَفَ النُّجْمُ وَقِفَةَ الْحَيْرَانِ  
وَكَأَنِّي مَا قَلْتُ وَالْبَدْرُ طَفَلَ وَشَبَابُ الظَّلامِ فِي العَنفوانِ :  
لَيْتِي هَذِهِ عروسُ مِنَ الزُّنُجِ عَلَيْهَا قَلائِدُ مَنْ جُمانِ  
هَرَبَ النُّومِ مِنْ جَفَوْنِي فِيهَا هَرَبَ الأَمْنِ مِنْ فُؤادِ الجِبانِ  
وَكَأَنَّ الهَلالَ يَهْوَى الثَّرِيبَا فَهَما لِلوداعِ مَعْتَنقانِ  
وَسُهَيْلُ كوجنَةِ الحَبِّ فِي اللُّو نِ ، وَقَلْبِ المَحَبِّ فِي الخَفِّقانِ  
يُسْرَعُ اللُّمَحُّ فِي احمرارِ كَما تُسْرَعُ فِي اللُّمَحِّ مَقْلَةُ الغُضبانِ  
ثُمَّ شابِ الدَّجى فِخافِ مِنَ الهَجْرِ فِغَطَّى المِشيبِ بِالزُّعفرانِ  
وَلَا يَخْطئنا فِيها حِسُّ التَّحْدي ، بِهَذِهِ الصُّورِ المَرئِيَّةِ الَّتِي لا سَبيلَ  
لِثَلِّهِ إِلى إِدراكِها بِالْبَصَرِ المَغْلَقِ .

كما لا يخطئنا فيها إحساسه المرهف بسواد الظلمة في : أسود الطيلسان ،  
وعروس من الزنج ، وعنفوان شباب الظلام . وتعلقه بذكرى اللون  
الأحمر الذي وعاه منذ ألبسوه في علة الجدي ، الثوب المصبوغ بالزعفران ،  
لم يعقل غيره ... فصنعَ به الدجى حين شاب ، خوفاً من هجر ليلة  
اللهو وانصرامها !

وتكاد هذه الملاحظ ، تميز ما في ديوانه من شعر الوصف . وصور  
البيان فيما يُعرف في المصطلح بالتشبيه والاستعارة والكناية والرمز ...  
وهي جميعاً من الرؤى الشعرية التي لا يهون إغفالها بعد الذي شاع من  
عمق الخيال الشعري عند العرب ، وتقيد القصيدة العربية في أغلال  
« عمود الشعر » التقليدي المشهور (١) .

وفي ( سقط الزند ) أغانٍ للحب ، شدا فيها أبو العلاء بغزليات تنوب  
رقة وشجوا ووجدوا . ومنها ما يستأثر بالقصائد كاملات ، مما ينفي أن  
يكون قد تغزل على المشهور من نهج القصيدة العربية ، أو عمودها ،  
في الاستهلال بالغزل وبكاء الديار ، جذبا لاهتمام المملوح !  
فهل أحب أبو العلاء ؟

لا نعلم من أخبار أبي العلاء ، ما ينم عن حبه لامرأة ما . وليس في  
آثاره إشارة من قرب أو بعد ، إلى أنه عانى التجربة حسيا في الواقع  
المادي .

ونقول مع ذلك إن شعره في الغزل معبر عن معاناة وجدانية صادقة

---

(١) اقرأ فيه مثلا ، كتاب شاعرنا أبي القاسم الشابي ( الخيال الشعري عند العرب ) مع تعليقي عليه  
في ( قيم جديدة للأدب العربي ) ط المعارف ١٩٧٠ ومعهد الدراسات العربية ١٩٦٧ .

لظلمٍ إلى الحب ، وقد أعوزه المحبوب ففاضت أشواقه تنفيساً عما يكابد  
من ظلمٍ وحرمان .

وأنقل من شعره في السقط :

أَسَأَلْتُ أَيْيَ الدَّمْعِ فَوْقَ أَسِيلِ  
وَمَالَتْ لَظْلٌ بِالْعِرَاقِ ظَلِيلِ  
أَيَا جَارَةَ الْبَيْتِ الْمُنْعَرِ أَهْلُهُ  
غَدَوْتُ وَمَنْ لِي عِنْدَكُمْ بِمَقِيلِ  
لِغَيْرِي زَكَاةٌ مِنْ جِمَالٍ وَإِنْ نَكُنْ  
زَكَاةَ جِمَالٍ فَاذْكُرِي ابْنَ سَبِيلِ  
وَأَرْسَلْتُ طَيْفَا خَانَ لِمَا بَعَثْتَهُ  
فَلَا تَثْقِي مِنْ بَعْدِهِ بِرَسُولِ  
أَسْرَتِ أَخَانَا بِالْخِدَاعِ وَإِنَّهُ  
يُعَدُّ إِذَا اشْتَدَّ الْوَعْغَى بِقَبِيلِ  
فَإِنْ تَطَلَّقِيهِ تَمَلَّكِي شُكْرَ قَوْمِهِ  
وَإِنْ تَقْتَلِيهِ تَوَخَّذِي بِقَتِيلِ  
وَإِنْ عَاشَ لَاقَى ذَلَّةً ، وَاخْتِيَارُهُ  
وَفَاةٌ عَزِيزٍ لَا حَيَاةَ ذَلِيلِ  
وَكَيْفَ يَجْرُ الْجَيْشُ يَطْلُبُ غَارَةَ  
أَسِيرٍ - بِمَجْرُورِ الذِّيُولِ كَحَبِيلِ

♦♦♦♦

إن كان طَيْفُكَ بَرًّا في الذي زعما  
فإن قومك ما برُّوا لهم قسما  
آبى أميرك لا يسرى الخيال لنا  
إذا هجعنا ، فقد أسرى وما عَلِمَا  
وكم تمننتُ رجال فيك مَعْضَبَةً  
أن يُبصروه ، فلم يَظهر لهم سَقَمَا  
نشوف من آلِ هِنْدٍ بارقا أَرَجَا  
كأنما فُضَّ عن مسكٍ وما خُتِمَا  
إذا أطل على أبياتِ باديةٍ  
قام الولائد يستقبسنه ضَرَمَا

\*\*\*\*

إن كنتَ مدعيا مودة زينبِ  
فاسكِبْ دموعك يا غمام وتَسْكِبْ  
فمن الغمام لو علمتَ غمامةً  
سوداء ، هُدْبَاهَا نظيرُ الهيدبِ  
بالجفنِ بارزتِ القلوبِ وإنما  
بالنصلِ يبرز كلُّ شهمٍ محربِ  
كم قُبلةٍ لكِ في الضمائر لم أخفِ  
منها الحسابَ لأنها لم تُكْتَبِ  
ومتى خلوت بها من أجلكِ لم أَرَعُ  
فيها بطلعة عاذلٍ من مرقبِ

ورسولِ أحلامِ إليك بعثته  
فأتى على بأسٍ بنجحِ المطلب  
وكانَ حبكُ قال : حظك في السرى  
فالطمُ بأيدي العيسِ وجه السنبِ

هي إذن مواجد محرومٍ من الحب ، ورؤى خيال لا سبيل له إلى  
سواها ، وإنه ليعلم أن حظه في السرى وأحلام الخيال ورؤى المنام ،  
فحسب .

وليس صحيحاً أن أبا العلاء فيما غنى من شعر الغزل ، كان - على  
ما وهم واهمون - يتكلف النظم في كل أغراض الشعر المعروفة لعصره ،  
إعلاناً عن اقتداره على الصنعة ، دون أن يكون لغزله حظ من صدق  
معاناة وجدانية .

كلا ، فليس أبو العلاء بالذي يزيف وجدانه أو يقول ما لا يجد .  
وإنما قال ما قال عن معاناة صادقة لحرمان قاس ، ولم يكذبنا القول  
بل كشف عن وطأة إحساسه الباهظ باللهفة إلى ما لا يُدرِك ولا ينال  
إلا بالخيال ؛ ورفع نجواه إلى حبيبة تمثلها ، لا حظاً له منها إلا  
سراب زينته الوهم ، والتشبيث بطيفٍ يُلَم بالمدنف الصب ، ثم يسري  
بعيدا إلى حيث لا مطمع ولا رجاء :

يا غرةَ الحيِّ الكثيرِ شياتِه

ما تأمرين لمدنفٍ متماثلِ

لاقاك في العام الذي وتي فلم

يسألك إلا قبلةً في قابل

إن البخيل إذا يمدُّ له المدى  
في الجود ، هان عليه وعدُّ السائلِ  
وسألتُ ما بين العقيق إلى الغضا  
فجزعتُ من أمدِ النوى المتناولِ  
جهلٌ بمثلِك أن يزور بلادنا  
يختال بين أساورٍ وخلائلِ

\*\*\*\*

منك الصدودُ ومنى بالصدودِ رضى  
من ذا عليٌّ بهذا في هوائِك قضى ؟  
بي منك ما لو غدا بالشمس ما طلعتُ  
من الكآبة ، أو بالبرقِ ما ومضا  
جريتُ دهرى وأهليه فما تركتُ  
لي التجاربُ في ودِّ امرئٍ غرضاً  
إذا القى ذم عيشاً في شيبته  
ماذا يقول إذا عصرُ الشبابِ مضى

\*\*\*\*

ولا نرفض احتمال أن تكون هذه الغزلياتُ من الشعر الرمزي الذي  
يُخفي وراء ظاهر لفظه دلالةً مستورة على أمنياتٍ تعلق بها أبو العلاء  
في شبابه الطامح ، كأن تكون هذه الحبيبة رمزا إلى الدنيا ، أو إلى  
المجد ، أو إلى نعمة البصر التي حُرِّم منها ، أو ... أو ...

وثبقي مع هذا كله ، دلالة إشارته لهذا الأسلوب ، على ما كان  
يضمّر من معاناة لمواجده الحب . وهي دلالة لا تكشفها قصائده المفردة  
للغزل فقط ، بل تم عنها كذلك مطالع قصائد أخريات في غير الغزل :  
كاستهلاله بعض مدائحه في ديوانه الأول ، بمثل قوله :

يا ساهرَ البرقِ أيقظُ راقداً السمرِ  
لعل بالجزعِ أعوانا على السهرِ  
ويا أسيرةَ حِجْلِيها أرى سَفَهًا  
حَمَلَ الحَلِيّ لمن أعيا على النظرِ  
ما سرتُ إلا وطيفُ منكٍ يتبعني  
سُرَى أمامي ، وتأويباً على أثري  
لو حطَّ رَحْلي فوق النجمِ رافعه  
ألفيت ثم خيالاً منك مُنتظري  
يود أن ظلام الليل دامَ له  
وزيدَ فيه سواد القلب والبصرِ !!

واستهلاله قصيدة إخوانية إلى « الشريف موسى بن إسحاق »  
بقوله :

أَلَا حَ وقد رأى برقاً مليحاً  
سرى فأتى الحمى نضروا طليحاً  
كما أغضى الفتى ليزوق غمضاً  
فصادف جفنه جفناً قريحاً

إذا ما احتاج أحمر مستظيراً  
حسبت الليلَ زنجياً جريحاً  
أقول لصاحبي إذ هام وجدداً  
ببرقٍ ليس يُثبتُه نزوحاً  
وهاجته الجنوبُ لوصلِ حَيٍّ<sup>\*</sup>  
أقام ، وعموا داراً طروحاً  
سفاهُ لوعة النجدي لما  
تنسم من حبال الشام ريحاً  
وغِيٍّ لمحُ عينك شطرَ نجدٍ  
إذا ما آنستُ برقاً لموحاً  
وأمرضُ المواعيدِ أعلمتني  
بأن وراءها سقماً صحيحاً

•••••

ويطول تأملنا في رسوخ لون الحمرة في وجدانه مختلطاً بسواد ليله  
فهو في رؤيته الشعرية هنا : زنجي جريح : كما كانت ليلة لهوه عروسا  
من الزنج ، شاب الدجى فغطى مشيبه بالزعفران خوف هجرها ..  
وفي أغانيه للحب ، جسُّ الحزن الكامن في أعماقه ، وصدى  
اليأس المطوي تحت قناع الرضى بالصدود والنشوة بأمانى الخيال ،  
متحدياً بذلك واقعه المحروم ، وملتمساً لظمئه من سراب الوهم ريثاً .  
وإذا عجبنا لما في غزلياته من حديثٍ مثله عن السيف والغمد والحماثل ،

وعن الغارة والجيش ، والأسير الذي \* يُعد إذا اشتد الوغى بقبيل \*  
فأعجبُ منه أن نراه نظم في ( الدرعيات ) ديوانا - ملحفا بسقط  
الزند - وهي من عدة الحرب التي لا مجال له فيها بحال !  
ماضياً في ذلك ومثله على غُلوانه ،  
ومُصِراً على أن يخوض معركته بكل ما استطاع ، أو تكلف ، من  
مكابرة وعنادٍ .....

\*\*\*\*\*

## ومضات كاشفة

نلومُ على تبليدها قلوبنا  
تكايد من معيشتها جهادا

••

فالأرضُ تعلمُ أنني متصرفٌ  
من فوقها ، وكأنني من تحتها !  
أبو العلاء  
( سقط الزند )

أكان أبو العلاء في لطف حسّه وصفاء وجدانه وعجيب فطنته ،  
بحيث يجهل عُقَمَ المكابرة التي تصل به إلى ما يرووا من قوله إنه يحمد  
الله على العمى ، أو قوله في ( السقط ) :  
وأغدو ولو أن الصباحَ صوارمُ  
وأُسْري ولو أن الظلام جحافلُ ؟

كلا ...

وإنما كان يجعل بهذا الادعاء رجاء التشاغل عن واقعه المر ، وحمل نفسه على المقاومة والتجمل بالصبر على ما لا حيلة له فيه .  
أو لعله كان يحاول بهذا الضجيج المصاحب ، أن يُصم سمعه عن صوت في أعماقه يؤرقه ليل نهار :

- أما آن أن تكف عن هذا العناد العقيم والمقاومة المهذرة ؟  
وقد عبر عنه ، دون تنبيه فيما أقدر ، مطلع قصيدته الحماسية في جهاد المسلمين ضد الروم :

لقد آن أن يثني الجموح لجامُ

وأن يملك الصعب الأبيّ زمامُ

وعبرت عنه كذلك نفثات حزينة أفلتت منه واثية بما كان يطوي في أعماقه ، وومضات كاشفة عن مكتوم قهره ومكبوت أساه .  
وأكثر ما تلقانا هذه الومضات ، في مراثيه الناضحة بالمرارة والشجن واليأس . أذكر منها على الخصوص ، مراثيه في أبويه - وستأتي بعدُ - ومرثيته في « جعفر بن علي بن المهذب » وقد كان من زفاقي صباه ، مع صلة مصاهرة ربطتهما بزواج أبي محمد بن المهذب ، عم جعفر ، من عمة أبي العلاء .

في هذه المرثية يقول :

كان الأسمى فرضاً لو أن الردى      قال لنا : اقدوه ، فلم نَقْدِه  
يا دهرُ يا منجز إيعاده      ومُخْلِفتِ المأمولِ من وعده  
تستأسر العقبانَ في جَوْها      وتُنزِلُ الأعصمَ من فنْدِه

أرى ذوي الفضل وأضدادهم  
تجربة الدنيا وأفعالها  
إن زماني برزاياه لي  
لو عرف الإنسان مقداره  
أمس الذي مر ، على قريبه  
أضحى الذي أُجِّلَ في سنه  
ولا يُبالي الميت في قبره  
والواحد المفرد في حفيه  
وحالة الباكي لآبائه  
ما رغبة الحيِّ بآبائيه  
تدعو بطول العمرِ أفواهنا  
يُسرُّ أن مُدَّ بقاءه له  
يجمعهم سبيلك في مده  
حنت أخا الزهد على زهده  
صيرني أمرح في قده  
لم يفخر المولى على عبده  
يعجز أهل الأرض عن رده  
مثل الذي عوجل في مهده  
بذمه شبيح أم حمليه  
كالحاشدِ الكثير من حشده  
كحالة الباكي على ولده  
عما جنى الموت على جدّه  
لمن تناهى القلب في وده  
وكل ما يكره في مده !

\*\*\*\*

ومرثيته المشهورة ، في الفقيه القاضي « أبي حمزة التنوخي »  
وهو من بني عمومته ورفاق صباه ، وليست في الحق سوى مرثية للإنسان ،  
في عمومته المطلق :

غير مُجدٍ في ملتي واعتقادي      نوحُ باكٍ ولا ترنمُ شادٍ  
وشبيه صوت النعيِّ إذا قيد      من بصوتِ البشيرِ في كل نادٍ  
أبكتُ تلکمُ الحمامةُ أم غننت على غصن فرعها الميادِ  
صاحِ هذي قبورنا تملأ الرُخسبَ فإين القبورُ من عهد عادِ  
خفف الوطاء ما أظن أديم ال      أرض إلا من هذه الأجسادِ

وقبيحُ بنا وإن قدم العهد      سدُّ هوانِ الآبَاءِ والأجدادِ  
 سِرٌّ إن أسطعتَ في الهواءِ رويداً      لا اختيلاً على رُفَاتِ العبادِ  
 ربُّ لحدٍ قد صار لحداً مراراً      ضاحكٍ من تزاحمِ الأضدادِ  
 ودفينٍ على بقايا دفينٍ      في طويلِ الأزمانِ والآبادِ  
 تعبُ كلُّها الحياةَ فما أء      جبُّ إلا من راغبٍ في ازديادِ  
 كنتَ خِلَّ الصبا فلما أراد الـ      بينُ وافقتَ رأيه في المرادِ  
 وخلعتَ الشبابَ غصداً فيا ليتك      أبليتَه مع الأندادِ

.....

••••

وأملٍ من شعره اعتذاراً لبعض إخوانه عن قعوده عن التعزية في  
 فقيده من أهله :

يا راعي الودِّ الذي أفعالهُ  
 تُغني بظاهر أمرها عن نعتها  
 لو كنتُ حيّاً ما قطعتك فاعتذر  
 عني إليك لخلّةٍ بأمّتها  
 فالأرض تعلم أنني متصرف  
 من فوقها ، وكانني من تحتها  
 غدرتُ بي الدنيا وكلُّ مصاحبٍ  
 صاحبتهُ غدرَ الشمالِ بأختها  
 شغفتُ بواقفها الحريصِ وأظهرتُ  
 مقتي لما أظهرته من مقتها

لا بد للحساء من ذامٍ ولا  
ذامٍ لنفسي غيرُ سبِيهِ بَخْتِهَا  
ولقد شركتُك في أساكٍ شاطرا  
وحللتُ في وادي الهموم وخَبَّتِهَا

.....

ومنا من كان يظن أن مراثيه تنفرد بهذا الإيقاع الحزين والشجن  
المر ؛ وأن غيرها من شعر شبابه ، يسيطر عليه طموح الاستعلاء وزهو  
الاعتداد وجموح التحدي .

وأعترف بأنني كنت إلى عهد قريب ، مع الذين غلب عليهم ذلك  
الظن . ثم لما عاودت الإصغاء إلى أبي العلاء في صحبتي الحميمة له ،  
أدركت أننا قد فاتنا لمحِّ الومضات الكاشفة عن الجرح الغائر في أعماق  
وجدانه ، لا في مراثيه فحسب ، ولكن في مدائحه كذلك وحماسياته ،  
وغزلياته وفخرياته ، وأكاد أقول : في كل قصيدة من شعر شبابه .  
وإنما شُغلنا عنها ببريق طموحه الساطع ، وتاهت منا في ضجيج مكابرتة  
واستعلائته . وعذرنا أن أبا العلاء نفسه قد حاول صادقا مخلصا أن يُشغَلَ  
بهذا الضجيج عن مكابדתه النفسية للدواعي اليأس والقنوط ، وهواجس  
الخيبة والقهر . لولا أن أفلتت من أعماقه ، من حيث أراد أو لم يرد .  
وقد مرّت أبياتٌ من الفخرية الي استهلها بالسؤال العجيب :

أفوق البدرِ يوضَع لي مهادُ

أمّ الجوزاء تحت يدي وسادُ ؟

فلنصغ إذن إلى ما فيها من حسرة الحرمان وجهد الظمأ ، لا يخفيه

أن ردُّ هذا الحرمان إلى أن موضعه فوق السحاب ، حيث لا قطرة من  
ري :

كأني حيث يَنشأ الدجَن تحي  
فها أنا لا أُطلُّ ولا أُجَادُ  
أأخملُ والنباهةُ في لفظ  
وأقترُ والقناعةُ لي عنادُ  
وألقى الموتَ لم تخذ المطايا  
بحاجاتي ، ولم تجف الجيادُ !

••••

وأبياته التي باهى فيها بشرفه • الذي يظأُ الشريا • مع الفضل  
الذي بهر العبادا • وأعلن أنه يفل نواب الأيام وحده • إذا جمعت  
كتائبها احتشادا • ...

هذه الأبيات مسبوقة بهذا الاستسلام المر والاستهلال البائس الحزين :  
أرى العنقاء تكبرُ أن تُصادا  
فعايندُ من تطيق له عنادا  
وما نهنت عن طلب ولكن  
هي الأيام لا تُعطي قيادا  
نلوم على تبيدِها قلوبا  
تكابد من معيشتها جهادا  
إذا ما النار لم تطعم ضراما  
فأوشكُ أن تمر بها رمادا

ولما أن تَجَهَّمَنِي مرادي  
جريتُ مع الزمان كما أرادا  
وهونتُ الخطوبَ عليَّ حتى  
كأني صرتُ أمنحها ودادا  
أأنكرها ومنبتُها فؤادي  
وكيف تنكّرُ الأرضُ القَتادا

\*\*\*\*

وقصيدته النونية في ذكرى ليلة لهوٍ كأنها عروس من الزنج ،  
مطلعها هذا الجوّارُ المؤثر والشكوى من ظلام لا يفنى :

عَلَّانِي فَإِنْ بِيضِ الْأَمَانِي  
فَنَيْتِ وَالظَّلَامُ لَيْسَ بِفَانٍ  
كَمْ أَرَدْنَا ذَاكَ الزَّمَانَ بِمَدْحٍ  
فَشُغِّلْنَا بِذَمِّ ذَاكَ الزَّمَانَ  
وفيها يقول للشريف «أبي ابراهيم موسى» معذرا :

فاقتنع بالرويِّ والوزن مني  
فهومومي ثقيلة الأوزان  
من صروفٍ ملكنَ فكري ونطقي  
فهي قيد الفؤاد قيد اللسان

\*\*\*\*

ولاميته المشهورة في الفخر ، وقد قالها في عنفوان شبابه ووقدة

طموحه ، لم تخلُ من كلماتٍ تمَّ عما حاول أن يطوي من همومٍ ، تحت  
ركام التبلد والمدارة :

يهم الليالي بعضُ ما أنا مُضمِرُ  
ويُثقلُ رضوى دون ما أنا حاملُ  
وطال اعترافي بالزمان وأهله  
فلست أبالي مَنْ تغول الفوائلُ  
فلو بان عضدي ما تأسَّف منكبي  
ولو مات زندي ما بكته الأناملُ

••••

ويستهل أخرى من قصائد التحذي ، بهذا الأئين الجريح :  
ذَلَّتْ لما تصنع أيامنا نفوسنا تلك الأبياتُ  
تَجَنِّي خمورُ الهمِّ ما لم تكن تجني الخمورُ العنبيبات

••••

ويروون أنه سُئِلَ إجازةً هذا البيت :  
شُغلي ببُعدي عنك يشغلي ويصُدني عن كل أشغالي  
فصدرت عنه هذه النفثة ، مشحونة بهواجس القلق ولهاث الظما  
وعقم السراب :

ما يومٌ وصلِك وهو أقصرُ من  
نَفْسٍ ، بِأطولِ عيشَةٍ غَالٍ  
عَلِقْتُ حبالَ الشمس منك يدي  
وجديدها في الضعف كالبالي

وأردتُ وِرْدَ الوصلِ من قمر  
فصدّرتُ عنه كوارِدِ الآلِ  
وطلبتُ عندك راحةً ، وعلى  
قدر اعتقادي كان إدلالي  
وظننتُ في البلوى مُنأيَ ولم  
تكن المنية لي على بسالِ  
ما زلتُ أبلغ ما هممت به  
حتى هممتُ بكوكبِ عالِ  
إن فات سلوان الحياة فكلُّ الناس بعد مماته سالِ

.....

يا جنّةً عرضتُ معجّلةً  
فاخترتها وعصيتُ عُدّالي  
يضحي الرضابُ لأهلها بدلاً  
من باردٍ في الخلدِ سلسالِ  
إن لم تدومي صحّاً في خلدي  
أني بنارِ جهنمِ صصالِ  
قلبي أعاتب فهو يلزمني  
أبدأ تكلف هذه الحالِ

.....

وإذن فلم يكن أبو العلاء في معركة الأولى ، قد كذبتُه نفسه أو  
أخطأه جسُّ ما تُكابِد من هم وقهر .

كلا ، ولا كان شعره في التحدي والمكابرة ، من الزيف الوجداني ...  
وإنما يشهد ديوانه الأول ، أن الشاب الموهوب الطامح ، حاول ما  
وسعه التّجهد أن يقاوم الاستسلام إلى واقعه ، وأن يفلت مما كبّلت به  
محنته من أغلال تشل انطلاقه وتلجم طموحه ، دون أن يخونه في هذه  
المحاولة وعي ذاته .

وبقدر ما كان صادقا في شعره المعبر عن إرادته المصممة على الاستعلاء ،  
وإصراره العنيد على المكابرة والتّحدي .

كان صادقا كل الصدق في تلك الفلتات الكاشفة عن مطوي أشجانه ،  
الصادرة عن قلب يكابد محنة العيش :

نلوم على تبلُّدِها قلوبنا      تكابد من معيشتها جهادا



## مَوْتُ الْأَبِّ

لقد مسختُ قلبي وفاتك طائرا  
فأقسمُ ألاَّ يستقر عليَّ وكُن  
يقضي بقايا عيشه ، وجناحه  
حيثُ الدواعي في الإقامة والظعنِ  
كأن دعاء الموتِ باسمك نكزةٌ  
فرتُ كبدي ، والسمُّ ينفتُ في أذني  
أبو العلاء  
( سقط الزند )

مضى الحائر في معركته منتظرا ما تأتي به الأيام .  
وجاءته الأيام بما انتظر ، وإن جاوزت المدى في قسوتها .  
لقد توقع بحسه الملهم أن في جعبتها سهاما أخرى ، لكنه لم يكن  
يدرِي في أي موضع يقع السهم هذه المرة .

حتى مات أبوه ، فنفذت الطعنة إلى صميم كيانه ، وفقد الشاب  
الضريز أبا رحيما ومعلما صديقا ، وحُرْمَ بفقدته من كان يعينه على  
محنته ، ويمنحه زادا من طاقة المقاومة والاحتمال .

••••

متى مات أبوه ؟ وأين ؟

اختلفت الروايات في الزمان والمكان اختلافا بعيدا ، وإن كانت في  
جملتها ترجع إما إلى قول « ياقوت الحموي » : « إنه مات بحمص سنة  
٣٧٧ هـ (١) ،

أو إلى قول « ابن العديم » :

« وتوفي أبو محمد ، عبد الله بن سليمان ، والد أبي العلاء ، بمصر  
النعمان سنة خمس وتسعين وثلاثمائة » (٢) .

وبين الروایتين فرق شاسع لا يهون أن نمر به دون أن نحاول الاهتداء  
فيه إلى ما نطمئن به إلى أننا لم نفقد الشعاع المضيء لحياة أبي العلاء ،  
في تلك المرحلة الدقيقة من رحلة حياته ، وهو يخوض معركة الأولى  
مع الأيام ، مضغوطة بين طموح آمل ، وواقع مثبت مخذل .

ومصنفو كتاب ( تعريف القدماء بأبي العلاء ) لم يفتهم أن  
يلحظوا بُعد ما بين الروایتين . لكنهم فيما يبدو ، اكتفوا بتقرير  
رواية « ياقوت » حيث اعتمدها بغير توقف أو تعليق . ثم لما وصلوا  
إلى رواية « ابن العديم » لم يدعوا تمر كما مرت سابقتها ، بل علقوا

(١) إرشاد الأريب : ١٦٣/١ ط هندية .

(٢) الإنصاف والتحرير ، ٤٩٣ / تعريف .

عليها في الهامش بما نصه :

« كذا ، وإنما توفي سنة ٣٧٧ بحمص كما نص ياقوت » (١) .

دون أن يتجشموا مشقة الفحص النقدي لكلنا الروائيتين .  
ودون أن يشيروا من قريب أو بعيد ، إلى وجه ما من وجوه اعتماد  
رواية ياقوت ، وتقريرها بصيغة القصر الحاسم .

ويشق علينا أن يُحسم ذلك الخلاف بمثل هذه البساطة ، مع ما نعلمه  
من تخصص « ابن العديم » في تاريخ حلب وأعيانها ، وتفرغه لتصنيف  
كتاب جامع مفرد ، عن أبي العلاء وأسرتيه ، مما يجعله بادية ذي بدء  
أولى بالثقة من « ياقوت » الذي كان اهتمامه بأبي العلاء محدودا بالقدر  
الذي تتسع له ترجمة ياقوت للحشد الكاثر من الأديباء في معجمه الكبير .  
ثم إن « ياقوت » فيما روى من أخبار أبي العلاء وأهله ، يرسل  
مروياته غالبا بلا إسناد . على حين يحرص « ابن العديم » على إثبات  
أسانيده . وأكثرُ من روى عنهم ، من بني سليمان أو من بين الذين  
لقوا تلاميذ أبي العلاء ومعاصريه . كما يحرص على تحديد طرق التلقي  
قراءة أو سماعا أو إجازة أو مكاتبة أو وجادة ، (٢) على أدق الضوابط  
المنهجية للرواية .

ونقول مع هذا : إن تخصص « ابن العديم » وسلامة منهجه ، إذا  
لم يكفيا لترجيح روايته في وفاة والد أبي العلاء ، فلها ما يؤازرها من

(١) التعريف : ٤٩٣ - وقابله على ما في صفحة ٦٩ ، منه .

(٢) الوجادة في المصطلح ، ما يجده الراوي بخط المروري عنه . وهي في الأصل ما وضعه علماء الحديث  
من ضوابط الرواية والإسناد . أنظر ( مقدمة ابن الصلاح ) .

قرائن وشواهد ، يقدمها الفحص النقدي لكلتا الروائيتين :

فعلى رواية ياقوت ، يكون أبو العلاء قد امتحن باليتم وهو غلام في الرابعة عشرة من عمره . ومؤرخوه قد أجمعوا على أنه بدأ يقول الشعر وهو ابن إحدى عشرة أو اثنتي عشرة سنة ، فلننظر إذن في مرثيته لأبيه لنرى ما إذا كانت تجربة غلام مراهق ، لم يبدأ نظم الشعر إلا قبل موت أبيه بعامين أو ثلاثة ، على أقصى الأجلين ؟

نَقِمْتُ الرضَى حَتَّى عَلِي ضَا حَلِكِ الْمُرْنِ

فلا جادني إلا عبوس من الدجني

فليت فمي إن شامَ سِنِّي تبسما

فمُ الطعنة النجلاء تدمي بلا سن

أبي حكمتُ فيه الليالي ولم تزل

رماحُ المنايا قاداتٍ على الطعن

مضى طاهرَ الجثمانِ والنفس والكرى

وسُهدِ المُنى والجيبِ والذيل والرُدن

فيا ليت شعري هل يخف وقارُه

إذا صار أخذُ في القيامة كالعهن

وهل يَرِدُ الحوضِ الرويِّ مبادرا

مع الناس أم يَأبى الزحامَ فيستأني

حجاً زاده من جرأة وسماحةٍ

وبعضُ الحجاءِ داعٍ إلى البخل والجبن

\*\*\*\*

على أمّ ذفرٍ غضبةُ الله إنها  
 لأَجْدَرُ أنثى أن تخون وأن تخني  
 كعاب : دُجاها فرعُها ، ونهارُها  
 مُحياً لها قامت له الشمسُ بالحسنِ  
 رآها سليلُ الطينِ والشيبُ شامل  
 لها بالثريا والسماكينِ والسوزنِ  
 زمانَ تولتْ وأدّ حواءَ بنتَهَا  
 وكم وأدت في إثرِ حواءَ من قرنِ  
 كأن بنيتها يولدون وما لها  
 حليلٌ ، فتخشى العارَ إن سمحت بابنِ  
 جهلنا فلم نعلم على الحرص ما الذي  
 يراد بنا ، والعلمُ لله ذي المنِّ  
 إذا غُيب المرءُ استسر حديثه  
 ولم تخبر الأفكار عنه بما يغني  
 تفضل عقول الهبرزيات رشدهما  
 ولم يسلم الرأيُ القويُّ من الأفنِ  
 وقد كان أرباب الفصاحة كلما  
 رأوا حسنا عدوه من صنعة الجِنَّ

\*\*\*\*

وجدنا أذى الدنيا لذيذا كأنما  
 جنى النحل أصنافُ الشقاء الذي تجني

فما رغبت في الموت كُدْرُ مَسِيرُهَا  
إلى الوَرْدِ دَخْمَسُ ، ثم يشربن من أجن  
بصادفن صقرا كل يوم و ليلة  
ويلقين شرا من مخالبه الحُجْنِ  
ولا قلقاتُ الليلِ باتت كأنها  
من الأئينِ والإدلاجِ بعضُ القنَا، اللُدْنِ  
ضربن مَلِيعَا بالسنايكِ أربعا  
إلى الماءِ لا يَقْدِرْنَ منه على مَعْنِ  
وما استعذبتَه رُوحُ موسى و آدم  
وقد وُعدَا من بعده جنّي عَدْنِ

\*\*\*\*

أمولي القوافي ، كم أراك انقيادُها  
لك الفصحاءِ العُربَ كالعجمِ اللُكْنِ  
هنيئا لك البيت الجديدِ موسداً  
يمينك فيه بالسعادةِ واليُمنِ  
مجاورَ سَكْنِ في ديارٍ بعيده  
من الحي ، سقياً للديارِ وللسُكْنِ  
طلبتُ يقينا من جهينةَ عنهم  
ولم تخبريني يا جهينِ سوى الظنِ  
فإن تعهديني لا أزال مسائلا  
فلإني لم أعطَ اليقينَ فأسْتَغْنِي

وإن لم يكن للفضل نَم مزيةً  
على النقص ، فالويل الطويل من العَبْنِ

\*\*\*\*

أمر بِرَبْعٍ كُنْتَ فِيهِ كَأَمَّا  
أمر من الإكرام بالحجرِ والرُّكْنِ  
وإجلالُ مغناك اجتهادُ مقصِّرٍ  
إذا السيفُ أودى فالعفاء على الجَفْنِ  
لقد مسختُ قلبي وفاتك طائرا  
فأقسم ألا يستقرَّ على وكن  
يُقضي بقايا عيشه ، وجناحه  
حيثُ الدواعي في الإقامة والظعن  
كَانَ دَعَاءَ الْمَوْتِ بِاسْمِكَ نَكْزَةً  
فَرَّتْ جَسَدِي ، وَالسَّمُ يَنْفُثُ فِي أُذُنِي  
ضَعَفَتْ عَنِ الْإِصْبَاحِ وَاللَّيْلِ ذَاهِبٌ  
كَمَا فِي الْمَصْبَاحِ فِي آخِرِ الْوَهْنِ  
وَمَا أَكْثَرَ الْمُثْنِيِّ عَلَيْكَ دِيَانَةً  
لَوْ أَنَّ حِمَامًا كَانَ يَثْنِيهِ مِنْ يُثْنِي  
يُؤَافِيكَ مِنْ رَبِّ الْعَلَا الصَّدَقِ بِالرُّضَى  
بشيرا ، وتلقاك الأمانةُ بالأمنِ  
ويكنى شهيدُ المرءِ غيرَكَ هَيْبَةً  
وَبُقْيَا ، وَإِنْ يُسْأَلُ شَهِيدَكَ لَا يَكْنِي

يصرحُ بقول المسك دونك نفحة  
وفعلٍ كأمواه الجنان بلا أسنٍ  
يدُ يَدَتِ الحسنَى ، وأنفاسُ ربِّها  
تُقَى ، ولسانُ لا يحرك باللسن  
فليتكَ في جفني مُوارى نِزاهَةً  
بتلك السجايا عن حشايَ وعن ضبني  
ولو أودعوكَ الجوّ خِفنا مَصيفَه  
ومشناه ، وازداد الضنينُ من الضنِّ  
فيا قبرِ واهٍ من ترابك لَبِنَا  
عليه وآهٍ من جنادلِكَ الحُسنِ

\*\*\*\*

فهل أنت إن ناديتُ رسك سامعا  
نداءِ ابنِكَ المفجوع بل عبدِكَ القسِّ  
سأبكي إذا غنى ابن ورقاء بهجةً  
وإن كان ما يعنيه ضدَّ الذي أعني  
ونادبةً في مسمعي كلُّ قينة  
تغرد باللحن البريء عن اللحن  
وأحملُ فيكَ الحزنَ حيا فإن أمتُ  
وألقتك لِم أسلُك طريقا إلى الحزن  
وبعدك لا يهوى الفؤاد مسرةً  
وإن خان في وصلِ السرور فلا يهني

\*\*\*\*

هل يمكن أن نتصور أن هذه المرثية من تفكير غلامٍ مراهق ، ونظم  
شاعر مبتدئ في مستهل تجربته الشعرية ؟  
لقد نقل الإخباريون ما بهر الناس في صباحه من نادر ذكائه وفطنته  
وقوة حافظته وعجيب ذاكرته .

وهذا الذي في المرثية ، ليس مما يدخل في نطاق ما اشتهر به في  
صباه ، بل يتجاوز الفطنة والحفاظة والذاكرة ، إلى الحكمة والتأمل  
والرأي والموقف ، ويُطل على الوجود من أفقٍ هيهات لوعي صبيٍّ أن  
يشارفه ، فضلا عن أن يتخذ منه موقفاً ويصوغ تأملاته فيه ، هذه  
الصياغة الشعرية الناضجة الصعبة .

كلا ، ليس صوت أبي العلاء هنا صوت فتى مراهق ، بل هو  
صوت رجلٍ حكيمٍ مجرب ، بلأ الدنيا وعرف حكم الليالي وأثخنه  
الجراح ، وأطال التأمل في لغز الوجود والعدم ، وأرهقته الحيرة في  
التماس اليقين .

صوت نحس فيه نبرات واضحة مما يأتينا بعدُ من حديثه في  
عزلته ، رهين محبسيه ، يُملي ( الفصول والغايات ) وذيوان ( لزوم  
ما لا يلزم ) وآثاره الأخرى في الطور الثاني من حياته .  
إلا أن يقال باحتمال أن يكون « أبو العلاء » قد رثى أباه بأخرة ،  
بعد أن نضح وعيه وشعره .

وهو احتمال يُبعده شاهدٌ من نص المرثية . حيث الحديث عن  
مشهد احتضار الفقيه والليل ذاهب ، وعن وقع النعي على الابن المفجوع ،  
والسؤال اليائس : هل يسمع الراحل الدعاء ؟

ومثل ذلك لا يكون إلا واللوعة حارة ، والجرح حي دام ، والعهد بالمصاب في الفقيد جد قريب .

\*\*\*\*

وكانت وفاته بمرة النعمان كما نقل « ابن العديم » وليس في حمص ، على رواية « ياقوت » .

بشاهد كذلك من نص المرثية ، حيث يقف أبو العلاء على قبر أبيه ويسأله ويناديه ، وما نعلمه ذهب قط إلى حمص ليقف على قبر هناك وينادي ثاويا في رسمه .

وإذ يقول أبو العلاء في مضجع أبيه :

مجاور سكنٍ في ديار بعيدة

من الحيّ ، سقيا للديار وللسكن

طلبت يقينا من جهينة عنهم

ولم تخبريني يا جهين سوى الظن

فإن السياق يُحيل أن نحمل « بعيدة » على البعد المكاني بين معرفة النعمان وحمص ، إذ ليس سكان الديار في حمص بحيث يطلب أبو العلاء يقينا عنهم من جهينة ، فلا تخبره سوى الظن .

وإنما هو على التحقيق ، البعد الشاسع الرهيب بين الحيّ وديار منه يسكنها الموتى في المقابر ، وليس أبعد منهم داراً وأنأى مزاراً .

\*\*\*\*

وينجلي الموقف تماما إذا تابعنا فحص رواية ياقوت ، التماسا لوجه الشبهة في قوله إن والد أبي العلاء : عبد الله بن سليمان « توفي بحمص

سنة ٣٧٧ هـ .

ففي هذه السنة بالذات ، توفي « أبو الحسن سليمان » جد أبي العلاء .  
وفي حمص : « كانت وفاته ، وهو على قضائها . ودُفِنَ ظاهرَ بابِ  
الرَّشْتَنِ » كما نص على ذلك « ابن العديم » (١) .

فلعل الأمر تشابه على ياقوت لوهم آخر وقع فيه ، حين ذكر أن  
جدَّ أبي العلاء « وليَّ القضاء بحمص ، وبها مات في سنة ٢٩٠ هـ » (١) .  
وقد تنبه مصنفو ( التعريف ) إلى هذا الوهم ، وقابلوه على ما في  
( الخريدة لابن العماد الأصفهاني ) من ولاية جدَّ أبي العلاء القضاء  
في سنة ٢٩٠ هـ . واسم الجد أيضا : أبو الحسن سليمان ، بن أحمد بن  
سليمان بن داود بن المطهر (٢) .

وبقي أن نقابله على ما في ( الإنصاف والتحري ) من قولٍ لبعض  
الناس : إن جد الجد ولي قضاء المعرة في سنة ٢٩٠ هـ . وبعضهم يقول :  
إن الذي تولى القضاء سنة ٢٩٠ هـ ، هو ابنه أبو بكر محمد ، جد والد  
أبي العلاء (٢) .

ثم نضيف إلى ذلك ما تظاهرت عليه الروايات من أن أبا العلاء  
« أخذ الحديث عن أبيه ، وجدَّ سليمان بن محمد » فكيف يأخذه عن  
مات في حدود الثلاثمائة ، على رواية ياقوت ، قبل مولده بأكثر من  
ثلاث وستين سنة ؟

\*\*\*\*\*

(١) في الإنصاف والتحري : ٤٩٢ / تعريف .

(٢) تعريف القدماء بأبي العلاء : ٦٨ ط القاهرة .

هكذا يشق علينا أن نأخذ ، من أي سبيل ، برواية « ياقوت »  
في أن جد أبي العلاء « أبا الحسن سليمان » توفي سنة ٢٩٠ هـ ، وتوفي  
الأب « عبد الله بن سليمان بحمص سنة ٣٧٧ هـ ، وهو ما اعتمده مصنفو  
التعريف ، في تاريخ وفاة والد أبي العلاء ، ومكان موته .

ونعدل عنها مطمئنين إلى خبر « ابن العديم » مؤرخه الثقة :  
جدُّ أبي العلاء « أبو الحسن سليمان : توفي سنة ٣٧٧ هـ بحمص ،  
وهو على قضائها ، ودُفن ظاهر باب الرستن » .

ووالد أبي العلاء « عبد الله بن سليمان : توفي بمعة النعمان سنة  
خمس وتسعين وثلاثمائة » .

فأحس ولده أبو العلاء ، أن قلبه مُسِخ بين جوانحه طائرا شريدا  
هائما ،

فأقسم ألا يستقرَّ على وكن  
يُقضي بقايا عيشه ، وجناحه  
حنيث الدواعي في الإقامة والظعن

.....



## إحدى الرحمتين

أما آن أن يشي الجموح لجامُ  
وأن يملك الصعبَ الأبي زمامُ

أبو العلاء

(سقط الزند)

مات أبوه ، وهو في الثانية والثلاثين من عمره ، قد استنفد طاقته على تحدي محنته وإرادة الاستعلاء عليها ، وأرهقته الضغطة بين شد الطموح وعجز الوسيلة والأداة ، فبدأ يفيق بالصدمة ، من أكاذيب المنى وسكرة الوهم ، وينتهي للتطور الخطير الذي سوف يجدُّ على حياته بعد بضع سنين .

ولعله بدأ عقب موت أبيه ، يفكر في أن يلقي سلاحه ويلزم موضعه ، ويُقر بأن العمى نقمة لا نعمة ،

لكنه تردد في الأمر يبلو نفسه ، وقد أشفق من أن تكون رغبته في

الاستسلام طارئة بفعل الصدمة ، وأن يخونه وهم الراحة باليأس ، كما  
خانه وهم الراحة بالأمل .

كان يخشى أن تكون في النفس بقية من أثر محاولته التي طالت ،  
وأن يظل في مسمعه صدى راسخ من شعره الأول الذي مضى فيه على  
غلوائه محاولاً أن يقنع نفسه ، قبل أن يقنع سواه ، بأنه مستطيع أن  
يرقى إلى ما فوق النجم ، حيث لا يبلغ شأوه منافس متطاول ، ولا يصل  
إليه نباح حاسد حاقد .

ولقد حاول قدر استطاعته أن يتجلد للصدمة الجديدة ، وأن يطوي  
جرحها في أعماقه المتخنة بالجراح ، كيما يستأنف صراعه مع الدنيا .  
فما كان من السهل عليه أن يثد طموحه مرة واحدة ، وأن يقهر ما لبشرته  
من أشواق سيظل يكابدها ما عاش .

بل ليس ببعيد أن تكون الصدمة الجديدة قد أرهفت وهم تجلده ،  
وغشيه من دوارها ما خيل إليه أنه قادر على احتمال كل ما تأتي به  
الدنيا من رزايا .

وأعانه على ذلك أن أمه الغالية قد بقيت له ، ولديها يمكن أن يجد  
العوضَ عن فقد ، ويلتمس العزاء عما لقي من عنّت الأيام والليالي .

\*\*\*\*

وفي هذه الفترة من أخريات القرن الرابع ، بدأ يفكر في الرحلة إلى  
بغداد لعله يختبر طاقته على مجاهدة نفسه ، أو مجاهدة الدنيا :  
مجاهدة نفسه فيما رسخَ فيها من أشواق الطموح وأغراها به من  
إرادة الاستعلاء .

أو مجاهدة الدنيا فيما رَسَخَ في فطرته من حُبِّ لها ، وما خايله من  
سراب الأمل فيها وإمكان الظفر بها والاعتذار عليها .

وأطال التفكير ، ومن شأنه أن يطول :

احتاج في حيرته إلى ثلاث سنين ، بعد موت أبيه ، ليستقر عزمه  
على رأي في هذه الرحلة التي تنزعه من دنياه بين أهله وتلقي به في  
منازح الغربة ، ولكنها مع كل ما يحف بها من مخاوف ومخاطر ، رحلة  
اختيار لا بد منه . فهي وحدها التي يمكن أن تحسم موقفه بين مُضِيٍّ  
في المقاومة والتحدي والمكابرة ، وبين ما يهفو إليه من استقرار بالكف  
عن معاندة قدره : « فعانِدْ مَنْ تطيق له عنادا » .

في أخريات سنة ٣٩٨ هـ ، كان قد أجمع أمره على الرحلة إلى مدينة  
السلام ، عساه ألا يلدغ من جحر مرتين : يتعلق براحة القنوط ثم  
تخذله نفسه ، كما تعلق فيما مضى من عمره براحة الأمل ، فخذلته  
الدنيا .

وأعلم أمه بعزمه الجاد على السفر فأذنت له فيه حين لم يكن لها  
إلا أن تأذن . وانتفض قلبه وهو يفارقها مودعا ، كأنما حدثه القلب أنه  
الفراق لا لقاء بعده .

وودع أهل معرة النعمان ، وكلهم عشيرة وجيران .  
وخلّف مهد مولده ومدرج صباه ، وما من أحدٍ يدري ماذا يستقبل  
هذا المسافر الضرير في غده .

بل ما كان ، هو نفسه ، يدري حقا : هل آن الأوان ليستيقن من  
جوابٍ عن السؤال الملحّ على وجدانه الحائر المتعب :

أما آن أن يثني الجموحَ لجامُ

وأن يملك الصعبَ الأبيَّ زمام !

قصارى ما كان يدريه ، هو أنه لم يبق عليه إلا أن يجتاز هذا  
المعبر عند مفترق الطرق ، إلى حيث يوجه خطاه ، فإما أن يمضي به  
على مسار دربه الأول ، الذي يلوح له مسدودا أو يكاد . وإما أن يأخذه  
إلى الاتجاه المضاد ، حيث يلوح الدرب وغرا غير مطروق ، لا دليل  
لسار فيه ولا رفيق .

بعد أن يكون سوى حسابه مع نفسه ودينياه ، وبذل جهد المطبق ،  
ما قصر ولا فرط :

تخيرت جهدي لو ملكت خيارا

وطرتُ بعزمي لو أصبت مطارا

